باقة من الفلسفة الإسلامية

الفيلسوف ابن مسكويه

وكتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« ولا ينبغي على أية حال أن نشكر له فقط محاولته إقامة نظام خلقي بعيد عن نزعات المتدينين وزهد المتصوفة ، بل ينبغي كذلك أن نسجل له ، في الرسم الذي وضعه ، الذوق السليم والثقافة الواسعة » (دي بور)

نعرض اليوم بإيجاز لفيلسوف إسلامي أخرج للناس دستوراً إيجابياً أخلاقياً طريفاً قوامه المنطق الصحيح والذوق السليم ، بحيث لو تبعوه في حياتهم لنالوا به السعادة الحق دنيا وأخرى . ونعني به الفيلسوف « أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه » صاحب « كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » ، وهو الكتاب المعروف الذي نصح الإمام « محمد عبده » بتدريسه في الأزهر إلى جانب الإحياء للغزالي ، والذي قام المرحوم « علي باشا رفاعة » بنشره وتبويبه ، والذي شرع الزعيم الخالد « سعد زغلول » في اختصاره والتعليق عليه دون أن يتمه

١ — عصره

عاش ابن مسكويه في العصر البويهي الثالث أي في العصر الذي يمتاز بشدة ضعف الخلافة العباسية وبقيام دويلات لا يعترف أكثرها للخليفة بغير السلطة الاسمية . ويهمنا من هذه الدويلات الدولة البويهية (٣٢٠—٤٤٧هـ) لأن ابن مسكويه عاش ومات في كنفها . وكانت هذه الدولة مظهراً قوياً للنشاط الفارسي الذي كان يرمي إلى الانفصال عن حكم العباسيين واستعادة مجد الفرس القديم . وكان ملوكها يحبون العلم والأدب ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا عظماء الأدباء كالمهلبي وابن العميد وابن عباد وغيرهم . وكانت مجالسهم أبدا حافلة بكبار الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن على شاكلتهم . لذلك لا عجب أن يمتاز هذا العصر بنضج العلم ، وتكوين المعاجم اللغوية ، واستقرار الانشاء على أسلوب مثالي . ولا عجب أن تنمو الفلسفة وتزهر ، وتستقر قواعد الطبيعيات والطب ، ويتسع خيال الشعراء ، ويظهر الشعر الفلسفي ، وينمو فن التاريخ والجغرافيا ، ويظهر النقد الأدبي ، وتؤلف القصص المجازية ، وتنتشر المكاتب حاوية لألوف المخطوطات[1] » أجل ولا عجب أن يظهر أمثال ابن سينا وابن مسكويه والهمذاني والخوارزمي ، والمتنبي وأبي فراس والأصفهاني والقالي والثعالبي والتوحيدي والصابي والشريف الرضي والتنوخي والطبري

على أن الحالة الخلقية لذلك العصر لم تك لتساير الحالة العلمية رقياً ونجاحاً . ويلوح ذلك في ميكيافيلية السياسة وعبث الكبراء والعظماء على السواء . وما بالك بحكم قاس عنيف يصلب ويشمل ويبتر ويستمع للوشايات والدناءات ، وتمتد يد بطشه وغدره إلى الوزراء والأمراء والسلاطين القريب منهم والبعيد ؟ وما بالك بعظماء وكبراء يقول « الثعالبي » في أحد مجالس لهوهم : « أنهم أخذوا بفن من الانخلاع عجيب ، وبطريق من الاسترسال رحيب ! ؟ » ويقول في مجلس آخر :

فكان الذي لولا الحياء أذعته ولا خير في عيش الفتى إن تستترا

وفي مجلس ثالث :

« ولم نزل نشرب الراح إلى أن باح الصبح بسره ، وقام كل منا يتعثر في سكره[2] ! ؟ »

٢ — حياته

وعسير جداً أن نتلمس حياة ابن مسكويه فيما ترك من كتب أو فيما ذكر عنه الكتاب والمؤرخون . وكل ما قد استطعنا كشفه من المؤلفات والتراجم العديدة التي اطلعنا عليها هو أنه ولد حوالي عام ٣٣٠ هـ ومات في ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٣٠ م) ، وكان مولده « بالري » في أسرة فارسية[3]

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجي زيدان

(٢) ويروي صاحب شذرات الذهب أن الوزير المهلبي المتوفى سنة ٣٥٢هـ كان يجتمع عنده القضاة والفقهاء ليلتين في الأسبوع ، وما فيهم إلا أبيض اللحية طويلها ، فاذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه خلعوا ثوب الوقار ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس من ذهب مملوء شراباً فطربلياً ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب أكثره ، ثم يرش بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم ! — (ص٣٦٣ج٢) — (أما أقوال الثعالبي الآنفة فبالبتيمة)

(٣) ومعنى مسكويه بالفارسية « رائحة المسك » كما أن معنى سيبويه « رائحة التفاح »

شريفة . وسرعان ما يترك والده أمه فيبقى هو راعياً لها حتى تتزوج بغير أبيه فيتركها ويتزح إلى بغداد شاباً . وهناك يتصل بالوزير « المهلبي » حوالى سنة ٣٤٨ هـ ويدخل فى خدمته ككاتم لسره ، ويبقى إلى جانبه ينادمه ويسامره حتى عام ٣٥٢ هـ وهو عام وفاة الوزير ؛ ومن ثم يعود إلى الرى حيث يلتحق بخزانة الوزير العظيم « ابن العميد » وينال ثقته ومحبته وصداقته ، ويبقى معه حتى عام سنة ٣٦٠ هـ لينتقل بعد وفاته إلى خدمة ولده الوزير « أبى الفتح » . وقد بقى فى خدمة هذا الشاب حتى تنكر له الدهر ودخل الوزير السجن سنة ٣٦٦ هـ . ثم التحق بعدئذ بخدمة الملك الظافر « عضد الدولة » الذى استولى على بغداد وغدر بسلطانها عز الدولة أشنع غدر ، كما التحق بعده بخدمة صمصام الدولة وشرفها حتى عام ٣٧٩ هـ ، وهو العام الذى دخل فيه فى خدمة « بهاء الدولة » واختص به وعظم قدره عنده . وهكذا انتقل ابن مسكويه من خدمة وزير إلى سلطان حتى هرم وشعر بدنو الموت ، فانتقل كما يقول صاحب « روضات الجنان » إلى « أصبهان » حيث مات عام ٤٢١ هـ ، وحيث دفن فى « محلة حاضو » بقبر مشهور معروف ...

٣ — ثقافته وأخلاقياته

وقد تثقف ثقافة أدبية واسعة ، ونهل من مجالس العلم ومكتباته ، وعنى عناية خاصة بالأخلاق فدرس حكمها عند الفرس والعرب والهنود والروم ، وجمع ما راقه من هذه الحكم وأخرجه فى كتاب لايزال مخطوطاً . هذا إلى أنه قرأ ما قد خلفه أرسطو وأفلاطون وجالينوس فى هذه الناحية وحصه تمحيصاً . وكأنما دفعته تربيته العائلية السليمة ، وقلبه الكبير الحى ، وتجربته الأليمة فى مجالس السلاطين والوزراء ، إلى إنقاذ عصره والعصور التى تليه من السياسة الخرقاء والأخلاق المعتلة ، فراح يقرأ فى الأخلاق ويؤلف ، ويخرج للناس كتباً فيها من المنطق الصحيح ما يهديهم إلى « كمالهم الإنسانى » ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الفضائل والعلوم لتتم لهم السعادة التى ينشدونها عبثاً فى تلك الخيرات الوهمية الخارجية ، خيرات « الكون والفساد » . وقد تجلت هذه النزعة فيما ترك من عهد عاهد فيه نفسه « أن يجاهدها ويتفقد أمرها ما استطاع ، فيعف وتشجع ويحكم ، ويقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله السرف على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، ويحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، ويستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة[1] ... الخ » .. أقول تجلت هذه النزعة فى ذلك العهد الطريف ، وتجلت كذلك فى كتابه التاريخى المعروف « تجارب الأمم وعواقب الهمم » وهو الكتاب الذى فضح فيه بجرأة وصراحة الكثير من رذائل السلاطين الذين خدم أولادهم وأحفادهم[2] كما تجلت على الخصوص فى كتابه العظيم الذى نحدثك عنه الآن :

٤ — كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

ويعتبر هذا الكتاب أهم كتبه الأخلاقية وأطرفها وأكملها[3] ونظراً لأن ابن مسكويه كان أديباً شاعراً يحذق العربية والفارسية على السواء ، فإن أسلوبه فيه يمتاز بالسلاسة والرقة والعذوبة على غير عادة الفلاسفة الاسلاميين . وقد أعجب « الطوسى » به كل الاعجاب فترجمه إلى الفارسية وقال عنه :

بنفسى كتاب حاز كل فضيلة ... وصار لتكميل البرية ضامنا
مؤلفه قد أبرز الحق خالصاً ... بتأليفه من بعد ما كان كامنا
ووسمه باسم الطهارة قاضيا ... به حق معناه ولم يك مائنا
لقد بذل المجهود لله دره ... فما كان فى نصح الخلائق خائنا

والكتاب بعد هذا ست مقالات تدور كما قلنا حول الأخلاق الايجابية للانسان ، أى الأخلاق التى تليق به من حيث هو حيوان ناطق . ولذلك نراه يفرق فى المقالة الأولى بين النفس

(١) أنظر الارشاد لياقوت ، والمقابسات للسجستانى

(٢) وقد أعجب المستشرقون بذلك الكتاب وبدقته العلمية فطبعته لجنة جيب التذكارية ، ومجده الأستاذ « مرجليوث » فى مقدمة لكتابه الانجليزى (سقوط الخلافة العباسية) وفى كتابه « محاضرات فى مؤرخى العرب »

(٣) وله غير هذا الكتاب كتاب « جاويدان خرد » أى — العقل الأزلى — جمع فيه آداب العرب والفرس والهنود والروم وجعله مصداقاً للقوانين الخلقية التى ذكرها فى « التهذيب » ، وله كذلك رسالة صغيرة فى السعادة كتبها لصديقه ابن العميد لا تخرج فى معناها عما فى التهذيب ، وكتاب ثالث يسمى « بالفوز الأصغر » ويعتبر أساساً لفلسفته الخلقية وإيمانه الدينى الفلسفى . وهذان الأخيران مطبوعان . أما الأول فما يزال مخطوطاً بمكتبات أوربا ولاسيما مكتبة باريس الأهلية

والجسد تفريقاً يثبت به روحانية الأولى وخلودها واحتياج قواها المختلفة إلى كمال خاص يتفق وما فيها من عقل مسيطر وفكر مقدس . وتراه يتناول فى الثانية خلق الانسان وقابليته للتغير والتهذيب ومدى أثر المعرفة فى العمل الخلقى ، ويتأدى من ذلك إلى « المنزلة الرفيعة » الجديرة بالانسان وماذا عسى أن يعوقنا عنها . أما المقالة الثالثة فلا تتناول غير موضوع السعادة بالبسط والمناقشة والدرس . وأما المقالة الرابعة فتحدد الأعمال الخلقية وتميزها عن غيرها وتنتهي بنا إلى المقالة الخامسة التى يبسط فيها أنواع المحبة بوجه عام ومحبة الصديق على الخصوص . وأخيراً تأتى المقالة السادسة لتبين لنا طريق حفظ الصحة على النفس ومعالجتها إذا مرضت

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين وجه الطرافة والجمال والانساق فى هذه المقالات البعيدة فى منهجها عن منهج الدينيين — (كالبصرى فى كتاب أدب الدنيا والدين [1]) — ، والمعتمدة فى طريقتها على الاستقراء العلمى الدقيق الذي « يكاد » ينطق بالتطور ، والذى يرسل البصر فى الكون كله ويحدد للإنسان ماهيته وعمله فيه !

أما مصادره فى ذلك الكتاب فهى تلك الثقافة الخلقية الواسعة التى استمدها من الأمم الأربع ، والتى يلوح فيها القرآن متفقا مع أرسطو وإفلاطون وجالينوس وغيرهم من حكماء اليونان على الخصوص .

وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين هذا الكتاب وبين كتاب أرسطو « إلى نيكوماخوس » : وجدنا ابن مسكويه يبز المعلم الأول أحيانا فى الوضوح والانسجام ، ويتفوق عليه في فصول خاصة كفصل الصداقة والصديق ، ويزيد على فصوله فصولا أخرى جوهرية كفصلى « دفع الأحزان » و « حفظ الصحة على النفس السليمة » ! !

لذلك ننصح القارىء العزيز بقراءة هذا الكتاب مرة ومرة ومرة ، ويجعله دستورا له فى حياته كإنسان يرنو إلى السعادة الحق دنيا وأخرى » ونختتم هذا التعريف الموجز بقول ابن مسكويه لابن العميد :

لايعجبنك حسن القصر تنزله
فضيلة الشمس ليست فى منازلها
لوزيدت الشمس فى أبراجها مائة
مازاد ذلك شيئاً في فضائلها

أو بقوله لعميد الملك :

فانظر إلى سير القوم الذين مضوا
والحظ كتابتهم من باطن الكتب
تجد تفاوتهم فى الفضل مختلفاً
وإن تقاربت الأحوال فى النسب
هذا كتاج على رأس يعظمه
وذاك كالشعر الجافى على الذنب [1] ! !

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) انظر ارشاد الأديب لياقوت — ترجمة ابن مسكويه .

(١) انظر على الخصوص كلامه فى دفع الغم والحزن ووجوب عدم الخوف من الموت ، أو كلامه فى خلود النفس ، أو رأيه في اختيار الصديق والاحتفاظ به .

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة